﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ٨٥﴾ [الحجر: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين هلاك السّابقين، وخلق الكون وإنهائه، بقيام السّاعة بيقين

لَمّا ذَكَرَ اللّه تعالى أنَّهُ أَهْلَكَ الكُفّارَ فكَأنَّهُ قيلَ: الإهْلاكُ والتَّعْذيبُ كَيْفَ يَليقُ بِالرَّحيمِ الكَريمِ، فأجابَ عَنْهُ بأنّي إنَّما خَلَقْتُ الخَلْقَ ليَكونوا مُشْتَغِلينَ بِالعِبادَةِ والطّاعَةِ فإذا تَرَكوها وأعْرَضوا عَنْها كان منَ الحِكْمَةِ إهْلاكُهُم وتَطْهيرُ وجْهِ الأرْضِ، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ﴾[1].

لمّا كان المتنطّع قد يقول: لمَ عذَّب اللّه هؤلاء الأقوام وأهلكهم، فلو كان قد أماتهم ميتةً طبيعيَّةً وأجَّل عذابَهم إلى قيامِ السّاعة لكان أولى، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ﴾ الآية.

وأيضًا لمّا قال اللّه تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ جاءت هذه الآية لبيان أنَّه تعالى ما خلقَ السموات والأرض وما بينهما من أجلِ كسبِ الأموالِ، والتمتّع بالدنيا، فهذا عبثٌ وليس بشيءٍ، بل خلقهما بالحقِّ والعدلِ.

وأيضًا لمّا بيَّن في أوّل السورة خلق السماوات والأرضِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾ [الحجر: 16] وما جاء بعد هذه الآية، وأعقبه ذكر القصص ذكرَ هنا الحكمةَ في خلقِهما فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ﴾.

وأيضًا لمّا أخبرَ اللّه تعالى عن قصص الأمم المعذّبة جاءت هذه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/158.

الآية لبيانِ أنَّ ما أصابَهم إنّما كانَ باستحقاقِهم، فهو من عدلِ اللّه بالجزاء على الأعمال بما يناسبُها[1]، والمناسبات المذكورة متآلفة ولا تتقاطع.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱصۡفَحِ﴾: أصْلُ (صفح): عَرْضُ الشَّيْءِ وجانِبُهُ، ومِنْهُ سُمّيَ العَفْوُ صَفْحًا[2]؛ لأنَّ الَّذي يَصْفَحُ كأنَّهُ يُقابِلُ المُسيءَ بِصَفْحَةِ عُنُقِه إعْراضًا عن إساءَتِه، أو يَتَجاوَزُ الصَّفْحَةَ السَّيِّئَةَ ويُقابِلُهُ بالصَّفْحَةِ الجَميلَةِ، والصَّفْحُ: العَفْوُ والتَّجاوُزُ عن غيْرِه، يُقالُ: صَفَحَ يَصْفَحُ صَفْحًا: إذا عَفا وتَجاوَزَ، ويأْتي بِمعنى الإعْراضِ عن الذَّنْبِ وتَرْكِ العُقوبَةِ، فيُقال: صَفَحْتُ عَنْهُ، أي: أعْرَضْتُ عن ذَنْبِهِ[3]، والمقصود بالصَّفْحِ في الآية: العَفْوُ، وهو مُستَعملٌ هنا في لازِمِه، وهو عَدَمُ الحُزْنِ والغَضَبِ مِنْ صَنيعِ أعداءِ الدّينِ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تذكير بخلق الله الكون بالحقّ، ودعوة للصّفح الجميل، قبل قيام السّاعة الأكيد

يقولُ اللّه تعالى: وما خَلَقْنا السَّمواتِ والأرضَ وما فيهما وما بينَهما إلّا لحِكَمٍ ومَصالِحَ عَظيمةٍ، لا عبثًا وباطِلًا، وخلَقهما سبحانَه بالعدلِ لا بالظلمِ والجورِ، وإنَّ يومَ القيامةِ لآتٍ وواقِعٌ لا ريبَ فيه؛ وفيه يُجازَونَ بأعمالِهم، ومنهم مُشرِكو قومِك الذين كذَّبوك وآذَوك؛ فأعرِضْ يا محمَّدُ ﷺ عن مؤاخَذتِهم في الدُّنيا، واعفُ عنهم عَفوًا حَسَنًا من غيرِ عِتابٍ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/74.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صفح).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صفح).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/77.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/106، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/546، والبقاعي، نظم الدرر: 11/84.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الكناية في سياق هذه الآية:

الخلق للكون بالحقِّ، لا يلائم استمرارَ الفسادِ ودوامَ الشّرور

قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، وفيه أفادت هذه الآية على طريق الكناية أنَّ إهلاكَ الأممِ السابقة كان بالحقِّ، فإنَّ خلق السماوات والأرضِ وما بينهما بالحقِّ لا يلائم استمرارَ الفسادِ ودوامَ الشّرور، فيفيد لازمُه أنَّ الحكمةَ تقتضي إهلاكَ جميعِ المفسدين كلًّا في وقتِه، ويندرج فيه إهلاكُ الأمم السابقة دخولًا أوّليًّا[1].

مناسبة الوصلِ بالواو في الآية:

بيـان سعة المعنى، ومناسبته لما قبله وما بعدَه

مَوْقِعُ الواوِ في صَدْرِ هَذِهِ الجُملَةِ بَديعٌ، فهَذِهِ الجُملَةُ صالِحَةٌ لأنْ تَكونَ تَذْييلًا لِقَصَصِ الأُمَمِ المُعَذَّبَةِ؛ بِبَيانِ أنَّ ما أصابَهُم قَدِ اسْتَحَقّوهُ، فهوَ مِنْ عَدْلِ اللهِ بِالجَزاءِ عَلَى الأعْمالِ بما يُناسِبُها، وهي صالحةٌ لأنْ تَكونَ تَصْديرًا لِلْجُملَةِ الَّتي بَعْدَها، وهيَ جُملَةُ ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾[2].

دلالة ضمير العظمة في قوله ﴿خَلَقۡنَا﴾:

شـأن الخـلقِ وبديع انتظامِه، لا يقدرُ عليه إلّا القادر تعالى

أفاد التّعبير بضمير العظمة (نا) تعظيم شأنِ الخلقِ، وأنَّه ممّا لا يقدر عليه إلّا الملك الواحد الأحدُ، فالمقامُ مقام تعظيمٍ وتفخيمٍ.

فائدة الجمع في قوله ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

لمّا كانت الآية على معنى التّذييل، وكانت على معنى العمومِ والكلّيَّة، ناسب أن يُذكَرَ لفظُ السماوات بصيغة الجمعِ؛ وللإيذانِ بأنَّ كلَّ خلقِه قائمٌ بالحقِّ.

فائدة (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

السّموات تمثّل روعة الصّنع البديع

(أل) هنا للاستغراق، فتفيد أنَّه تعالى خلق جميع السّماوات.

---

(1) السمعاني، تفسير السمعاني: 3/149، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/216، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/193.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/74.

الأرض موضوعة للأنام، ومسخرة لهم

فائدة (أل) في قولِه ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

(أل) هنا للعهد، بمعنى أنَّه تعالى خلق الأرض التي هي معهودةٌ عندكم، والتي تعرفونها.

خلقُ الله يدلُّ على عظيمِ قدرته

بديعُ الطِّباق في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

لَمّا ذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ذكر ما قابلها، على طريق الطّباق؛ للإيذان بإحاطة خلقِه لما ارتفع وما سفل، ولتنبيه المخاطبين إلى التّفكّر في خلقِهما، فإنَّهما ما خُلقا إلّا بالحقِّ.

ما بين السّماوات والأرضِ، خلقٌ عظيمٌ متنوّعٌ

دلالة (ما) في قولِه ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾:

لَمّا كانت (ما) اسمًا موصولًا بمعنى الذي، وكانت على معنى العموم، أفاد عطفها على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أنَّ الذي بين السماوات والأرضِ خلقٌ عظيمٌ متنوِّعٌ، فيَشْمَلُ خلقَ السَّماواتِ والأرْضِ وما بَيْنَهُما خلقَ أصْنافِ المَخْلوقاتِ مِنْ حَيَوانٍ وجَمادٍ ونباتٍ، ويدخل فيه دخولًا أوّليًّا الأُمَمُ الَّتي عَلَى الأرْضِ وما حَلَّ بِها، والمَلائِكَةُ المَوَكَّلونَ بِإنْزالِ العَذابِ، والحَوادِثُ الكَوْنِيَّةُ الَّتي حَلَّتْ بِالأُمَمِ مِنَ الزَّلازِلِ والصَّواعِقِ والكِسَفِ[1].

مناسبة مجيء (وَما بَيْنَهُما)، لسياق الآيات ونظمها

سبب إيثار ذكر ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾:

لَمّا ذكر اللّه تعالى في صدر السّورة أنَّه جعل في السماء بروجًا وزيّنها للنّاظرين، وأنَّه ألقى في الأرضِ رواسي وأرسل الرّياح ممّا خَلَقَ بين السماء والأرض، ناسب أن يعطف هنا على خلق السماوات والأرض قولَه: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾؛ لأنَّ الآيةَ من قبيل ردِّ العجزِ على الصّدر كما سيأتي، ففيه إجمالٌ إلى ما تقدَّم ذكرُه ممّا هو بين السّماء والأرضِ، فتكون الآيةُ فذْلَكَةً بذكر الإجمالِ بعد التّفصيل، لتقريرِ المعنى وتأكيدِه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/75.

بلاغةُ الاحتراسِ في سياق الآية الكريمة:

إضافةُ الظّرف لضمير التّثنيةِ، لقطع توهّم غير المراد

ضمير التثنية في قوله ﴿بَيۡنَهُمَآ﴾ عائد على لفظَي السماوات والأرض، والتقدير وما بين السماواتِ والأرضِ، فالمرجوع عليه السماواتُ باعتبارِ مجموعِها والأرضُ، ولو قال: وما بينها لتوهم أنَّ المرادَ بين السماوات، أو بين قطع الأرض، فجاء الضَّمير بصيغة التّثنية للاحتراس ودفعِ التّوهُّم.

بلاغة القصر في ثنايا الآية الكريمة:

لا يليق بأُلوهية الله وعظمتِه إلّا أن يكون خلقُه بالحقِّ والعدلِ

قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، وفيه، لمّا كان الكفّار المكذّبون منكرين لحكمةِ خلقِ السماوات والأرض وما بينهما بسبب أفعالِهم وتصرّفاتِهم المنافية للحقِّ، وكانوا يظنّون أنَّهم يعيشون من أجلِ كسبِ الأموالِ والتمتّع بالدنيا، جاءت الآية بطريق القصر بالنّفي والاستثناء، ليفيدَ الرَّدَّ عليهم في إنكارِهم حكمةَ الخلقِ وأنَّه تعالى ما خلقَه إلّا بالعدلِ والإنصافِ، وللإيذانِ بأنَّه إن لم يكن بالحقِّ كانَ باطلًا وعبثًا، وهذا لا يليقُ بعظمةِ الخالقِ وعجيب خلقِه وسعتِه.

فائدة الباء، في قوله ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾:

كلُّ ما خلقَه اللهُ تعالى فيه حكمةٌ بالغةٌ

تحتمل الباء أن تكون للملابسة، ليفيدَ أنَّ خلقَ السماوات والأرَضِ وما بينهما ملتبسٌ بالحقِّ غيرَ منفكٍّ عنهما وعمّا بينهما، ويفيد نفي أن يكون خلقهُما بالباطلِ والعبث، وفيه إشعارٌ بأنَّ كلَّ ما خلقَه اللّه تعالى فيه حكمةٌ بالغةٌ، وأفعالُه سبحانَه كذلك، كما تحتمل أن تكون سببية، والتَّقدير على وجهين فإمّا أن يكون المعنى: ما خلقنا السماوات والأرَضِ وما بينهما إلّا للحقِّ، أي: للعدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال، وإمّا أن يكون المعنى ما خلقنا السماوات والأرضَ وما بينهما إلّا بسبب الحقِّ الذي اقتضاه الدّليل من الإيمان والطّاعة أو البعث والجزاء[1].

(1) أبو القاسم الزجاجي، معاني الحروف والصفات، ص: 87، والزمخشري، الكشاف: 2/587، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/541، والهمذاني، الكتاب الفريد: 4/91، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/193.

دلالة قولِه ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ بين الحالِ والصّفة:

الحَقُّ بادٍ في جَميعِ أحْوالِ المخلوقاتِ، ولا يلبث أن يظهر في عاقبة الأمور

الظّاهر أنَّ الجار والمجرور ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ حالٌ ممّا قبله، ولمّا كان الأصل في الحال أن تكون مقارنةً، أي: على معنى اقترانِ الحالِ بعاملِه في الوقتِ، وكان الظّاهر أنَّ الحالَ من المفعول وما عطفَ عليه أفادَ المعنى - إن كانت الباء للملابسةِ - اقترانَ ملابسةِ الحقِّ بخلق السماوات والأرض وما بينهما، وفيه معنى دوام ملابسة الحقِّ لخلق السماوات والأرضِ وما بينهما واستمرارِها، بِحَيْثُ يَكونُ الحَقُّ باديًا في جَميعِ أحْوالِ المَخْلوقاتِ، والمُلابَسَةُ هُنا عُرْفيَّةٌ فقَدْ يَتَأخَّرُ ظُهورُ الحَقِّ عَنْ خَلْقِ بَعْضِ الأحْوالِ والحَوادِثِ تَأخُّرًا مُتَفاوِتًا، فالمُلابَسَةُ بَيْنَ الخَلْقِ والحَقِّ تَخْتَلِفُ باخْتِلافِ الأحْوالِ مِنْ ظُهورِ الحَقِّ وخَفائِهِ عَلَى أنَّهُ لا يَلْبَثُ أنْ يَظْهَرَ في عاقِبَةِ الأُمورِ كَما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: 18][1]، وإن كانت الباء للسببيَّة أفاد الحالُ اقترانَ سببيَّة الحقِّ بخلق السماوات والأرضِ، فيكون ابتداءُ خلقِها مقترنًا بسببِ إقامةِ الحقِّ الذي اقتضاه الدّليل من الإيمان باللّه وطاعتِه، ويحتمل أن يكون الحال من الفاعل في ﴿خَلَقۡنَا﴾ والتّقدير: (ما خلقنا السماوات والأرضَ وما بينهما إلّا ومعنا الحقُّ)، وأجاز بعض المفسّرين أن يكون ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ صفةً لمفعول مطلق محذوف: والتقدير: ما خلقنا السماوات والأرضَ وما بينهما إلّا خلقًا ملتبسًا بالحقِّ، فتكون الباء للملابسة، وحُذِفَ الموصوف للعلم به فيكون من الحذف للإيجاز[2].

دلالة الحقِّ في الآية:

قد يكون الإمهال، استبقاءَ عُمرانِ جُزْءٍ مِنَ العالَمِ زَمانًا

لمّا جاء قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ عَقِبَ ذِكْرِ عِقابِ الأُمَمِ الَّتي طَغَتْ وظَلَمَتْ، وأنَّ ذَلِكَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/75.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/193.

جَزاءٌ مُناسِبٌ لتَمَرُّدِها وفَسادِها، وأنَّها وإنْ أُمهِلَتْ حينًا بِرَحْمَةٍ مِنَ اللّه لِحِكْمَةِ اسْتِبْقاءِ عُمرانِ جُزْءٍ مِنَ العالَمِ زَمانًا فهيَ لَم تُفْلِتْ مِنَ العَذابِ المُسْتَحَقِّ لَها، وهوَ مِنَ الحَقِّ أيْضًا فما كانَ إمهالُها إلّا حقًّا، فلمّا كان الأمر كذلك أفادَ أنَّ معنى الحقِّ هنا هوَ إجْراءُ أحْوالِ المَخْلوقاتِ عَلَى نِظامِ مُلائِم لِلْحِكْمَةِ والمُناسَبَةِ في الخَيْرِ والشَّرِّ، والكَمالِ والنَّقْصِ، والسُّموِّ والخَفْضِ، في كُلِّ نَوْعٍ بِما يَليقُ بِماهيَّتِهِ وحَقيقَتِهِ وما يُصْلِحُهُ، وما يَصْلُحُ هوَ لَهُ، بِحَسَبِ ما يَقْتَضيهِ النِّظامُ العامُّ لا بِحَسَبِ الأميالِ والشَّهَواتِ، فإذا لاحَ ذَلِكَ الحَقُّ المَوْصوفُ مُقارَنًا وُجودُه لِوُجودِ مَحْقوقِهِ فالأمرُ واضِحٌ، وإذا لاحَ تَخَلُّفُ شَيْءٍ عَنْ مُناسَبَةٍ فبِالتَّأمُّلِ والبَحْثِ يَتَّضِحُ أنَّ وراءَ ذَلِكَ مُناسَبَةً قَضَتْ بِتَعْطيلِ المُقارَنَةِ المَحْقوقَةِ، ثُمَّ لا يَتَبَدَّلُ الحَقُّ آخِرَ الأمرِ[1].

سرّ الوصل بالواو في ﴿وَإِنَّ﴾ في السّياق:

لمّا قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ﴾ عطف عليه قولَه ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌۖ﴾ للإيذانِ بأنَّ هذا الحقَّ يستبين ويظهر عندَ قيام السّاعة، عندَ جزاء المحسن على إحسانه والمسيء على إساءَته، وبأنَّ الدُّنيا ليست بدار جزاء، بل هي دار إقامةِ الحقِّ، فلا بدَّ من قيامِ السّاعةِ ليصل كلُّ ذي حقٍّ إلى حقِّه.

لا بدَّ من قيامِ السّاعةِ، ليصل كلُّ ذي حقٍّ إلى حقِّه

دلالة الواو في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾:

الواو عاطفةٌ لجملة ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌۖ﴾ على جملةِ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ﴾ لتكون كلُّ جملة مُسْتَقِلَّةً بإفادَةِ مَضْمونِها لأهَمّيَّتِهِ مَعَ كَوْنِ الجملة المعطوفة مُكَمِّلَةً للمعطوف عليها ومترتِّبةً عليها، فهي في حكم النّتيجة لها، فمَنْ عَرَفَ أنَّ جَميعَ المَخْلوقاتِ خُلِقَتْ خَلْقًا مُلابِسًا لِلْحَقِّ، وأيْقَنَ بِهِ، عَلِمَ أنَّ الحَقَّ لا يَتَخَلَّفُ عَنْ مُسْتَحِقِّهِ ولَوْ غابَ وتَأخَّرَ، وإنْ كانَ نِظامُ حَوادِثِ الدُّنْيا

الحَقُّ لا يَتَخَلَّفُ عَنْ مُسْتَحِقِّهِ ولَوْ غابَ وتَأخَّرَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/75.

قَدْ يُعَطِّلُ ظُهورَ الحَقِّ في نِصابِه وتَخَلُّفِه عَنْ أَرْبابِه، فعَلِمَ أَنَّ وراءَ هَذا النِّظامِ نِظامًا مُدَّخَرًا يَتَّصِلُ فيه الحَقُّ بِكُلِّ مُسْتَحِقٍّ إِنْ خَيْرًا وإِنْ شَرًّا، فلا يَحْسَبَنَّ مَنْ فاتَ مِنَ الَّذينَ ظَلَموا قَبْلَ حُلولِ العَذابِ بِهِم مُفْلِتًا مِنَ الجَزاءِ فإِنَّ اللّه قَدْ أَعَدَّ عالَمًا آخَرَ يُعْطي فيهِ الأُمورَ مُسْتَحِقّيها، وفي العطف بالواو انْتِقالٌ مِنْ تَهْديدِ المشركين من قريشٍ ووَعيدِهم بِعَذابِ الدُّنْيا إِلَى تَهْديدِهِم بِعَذابِ الآخِرَةِ، أي إِنَّ ساعَةَ إِنْفاذِ الحَقِّ آتيَةٌ لا مَحالَةَ فلا يُريبُكَ ما تَراهُ مِنْ سَلامَةِ مُكَذِّبيكَ وإِمهالِهِم[1].

بلاغة تتابعِ التّوكيد في السّياق الرّشيد:

تحـقُّـق وقـوع السّاعة والحثّ على الإعداد لها

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾، وفيه جاء الخبر على طريقة الخبر الإنكاريِّ بتضمّنه أكثر من توكيدٍ: (إنَّ) واللّام الموطّئة للقسم، واسميّة الجملة؛ للردِّ على المنكرين لإتيانِ السّاعة ووقوعِها، ولِتحقيق الإخبارِ بأنَّ السّاعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، فيفيد الخبرُ المؤكَّدُ تقويةَ الحثِّ على ما ترتّب عليه وهو الأمرُ بالصَّفح الجميل.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنية في قولِه ﴿ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾:

الـوعـدُ بإتيـان السّاعة، تسليةٌ لـلـمـؤمـنـين ووعيد للكافرين

شُبِّهت السّاعةُ وهي ساعةُ البعثِ بشخص آتٍ، فحذف المشبَّه به وذكر لازمًا من لوازمه وهو الإتيان على طريق الاستعارة المكنية الأصلية، لإفادة المبالغة في تحقُّقِ وقوعِها، ففيه تسليَةٌ لرسولِ اللّه ﷺ ووعيدٌ للمكذّبين.

نكتةُ استعمالِ فعل الإتيان في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾:

يـسـتـفـاد من فعل الإتيان أنها تأتي بغتة

أفاد التعبير بلفظ الإتيان لساعة البعثِ أنَّ إتيانَها سهلٌ؛ لأنَّ الذي يأتي بها هو الذي خلق السماوات والأرضَ وما بينهما بالحقِّ.

بلاغةُ استعمالِ اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿لَأٓتِيَةٞۖ﴾:

المـبـالـغـة في استجابة الكون كلّه لله وسرعة إتيان السّاعة

أُطلقَ اسمُ الفاعل ﴿لَأٓتِيَةٞۖ﴾ وأريدَ المفعولُ، لأنَّ اللّه تعالى هو الذي يأتي بالسّاعة، أي إنَّ الساعة مأتيَّةٌ لا آتية، فيكون اللفظ قد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/75 - 76.

استعملَ على طريق المجاز المرسل، وعلاقته الفاعلية، ونكتة التّعبير باسم الفاعل الإشعارُ بالمبالغة في سرعةِ الإتيان، وهو ما يتّفقُ مع السياق، والتّنبيهُ إلى أنّها هي التي تأتي إلى الخلقِ، فكأنَّ الخلقَ ينتظرونها، ليتلقَّوا جزاءَهم عندها.

وقـــوع ساعـةِ البعثِ من الحقِّ الّـذي بـه خلق الله السّماواتِ والأرض

دلالة الإخبار عن السّاعة بأنَّها آتيةٌ:

لمّا أخبرَ الله تعالى أنَّ السّاعةَ آتيةٌ أفادَ أنَّ وقوعَها حقٌّ، وأنَّها تظهر الحقَّ والعدلَ بمقتضى أنَّه تعالى ما خلق السماوات والأرضَ إلّا بالحقِّ.

السّـاعـة تفجأ النّاسَ بغتةً، في ساعة لا يعلمها إلّا الله ﷻ

براعة التّعبير عن يوم القيامة بالسّاعة:

المرادُ بالسّاعةِ ساعَةُ جَزاءِ المُكَذّبينَ بِسيّدنا مُحَمَّدٍ ﷺ أيْ ساعَةُ البَعْثِ وهو يوم القيامة[1]، وعُبِّر بالسّاعة لأنَّها تفجأ الناسَ بغتةً في ساعة لا يعلمها إلا الله ﷻ، وللإشعار بسرعة مجيئِها وسرعةِ إقامة البعثِ وسرعةِ جزاء المكذّبين.

بلاغة الكناية في قوله ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾:

الـجَــزاءُ عَـلَى أعْمالِ الكافرين المكذّبين مَوْكولٌ إِلَى الله تَعالَى

في الخبرِ كنايةٌ؛ إذ أفاد بلازمِه بعدَ الإخبار عن هلاكِ المكذّبين أنَّ الجَزاءَ عَلَى أعْمالِ الكافرين المكذّبين مَوْكولٌ إلَى اللّه تَعالَى، فينتقم اللّه لرسولِه ﷺ يوم القيامةِ من أعدائه، ويجازي رسولَه على حسناته والكفّار المكذّبين على سيئاتهم، ثمَّ يُنتقل من هذا المعنى إلى معنى آخر لازم له، هو تَصْبيرُ اللّه تَعالَى لسيّدنا رسولِ اللّه محمَّدٍ ﷺ وتسليتُه عَلَى سَفاهَةِ الكافرين من قَوْمِهِ وتكذيبِهم له وسلامتِهم وإمهالِهم في الدنيا، كما أنَّه تعالى لمّا خلق السماوات والأرضَ بالحقِّ لم يكن لائقًا بِحِكْمَتِهِ إهْمالُ أمر رسولِه ﷺ، والخطابُ وإن كان في ظاهرِه لرسول اللّه ﷺ لكن يدخل فيه المؤمنون برسولِ اللّه محمَّدٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/74.

ﷺ دخولًا أوّليًّا، فهو تصبيرٌ وتسليةٌ لهم كذلك على ما يلاقون من المكذّبين الظّالمين[1].

بلاغة الكناية في قوله ﴿لَآتِيَةٌۖ﴾:

عُبِّرَ بلفظ ﴿لَآتِيَةٌۖ﴾ للإشعار بلازمِه وهو أنّ الجزاء قريب، لأنَّ الجزاء مقارنٌ ليومِ القيامةِ، وكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ[2].

يـوم القـيامـةِ قريبٌ، فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ

فائدة الفاء، في قوله ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾:

الفاء عاطفة لجملة الطّلب على الجملة الاسميَّة لتفيدَ السببيَّة، وبيانُه أنَّه لّما جعل الله تعالى جزاء أعمالِ الكافرين موكولًا إليه سبحانه وجعل حكمهم إلى الآخرة، ولمّا صَبَّرَ الله تعالى رسولَه الأمين ﷺ عَلَى أذَى قَوْمِهِ رتّب عليه بالفاء ترغيبه في الصَّفْحِ عَنهم في الدنيا؛ والمعنى لمّا كانَ جَزاءُهُم على قبيح أعمالِهم مَوْكولًا إلَى الوَقْتِ المُقَدَّرِ وهو آتٍ فاصفح الآن عنهم واحْتَمِلْ ما تَلَقَّى مِنْهُم وأعْرِضْ عَنْهُم إعْراضًا جَميلًا بِحِلْمٍ وإغْضاءٍ[3]، وتحتمل أن تكون الفاء هي الفاء الفصيحة التي تفصح عن شرطٍ تقديرُه: فإن كانت السّاعةُ آتيةً فاصفح الصَّفحَ الجميلَ، وعلى الوجهين فالأمرُ بالصَّفح الجميلِ عن المسيئين ثابتٌ غيرُ منسوخٍ بآية القتالِ كما قيل لترتّبه على أمرٍ ثابتٍ هو إتيان الساعة، والمقصود منَ الآية هو المخالقةُ والمعاملة، ولأنَّ الله ﷻ أمرَ نبيَّه ﷺ أنْ يظهرَ الخلقَ الحسنَ، وأنْ يعاملَهم بالعفو، والصفحِ الخالي من الجزع والخوف والعتبِ[4].

الـصَّـفـحُ عـن الـكـافـريـن في الدّنيا وجزاؤهم على ظلمِهم يومَ القيامةِ

براعة التّعبير بلفظ ﴿فَٱصۡفَحِ﴾:

عُبِّرَ بالصَّفح الذي هو في اللغةِ الجنبُ؛ لأنَّهُ إذا أعْرَضَ عَنْهُ

الـصَّـفـحُ هـو الإعراض الخالي مـن جـزع وفـحـش، وقـد يـعـفـو الإنـسـان ولا يَصْفَحُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/587، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/158.
(2) أبو القاسم الكرماني، لباب التفاسير، ص: 1004.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 12/644، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/158، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/76.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/587، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/158.

فكَأنَّهُ قَدْ ولّاهُ صَفْحَتَهُ وصَفْحَهُ، أيْ عُرْضَهُ وجانِبَهُ، فجيء به على طريق الاستعارة التّصريحية التبعيَّة؛ بتشبيه الإعراض عن الذّنب وعن الإساءة بتولية العرضِ للمسيء بجامع التّرك والتّولّي، فكأنَّ المعنى: ولِّهم صفحة عنقِكَ بالإعراض عنهم، وعُبِّر بالصَّفحِ دون العفوِ؛ لأنَّه أبلغُ منَ العفوِ؛ لأنَّ الصَّفحَ هو الإعراض الخالي من جزع وفُحش[1]، وقد يعفو الإنسان ولا يَصْفَحُ[2].

بلاغة الكناية في سياق الصّفح الجميل:

قولُه تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾، لمّا أمر الله تعالى رسولَه ﷺ بالصفح عن المكذّبين أفادَ بلازمِه النّهيَ عن تعجيل الانتقام من المكَذِّبين المستهزئين وعن الحُزْنِ والغَضَبِ مِنْهم ومن صَنيعِ أعْداءِ الدّينِ، ففيه دعوة إلى المعاملة الحسنة مع أعداء الدّين لعلَّهم يؤمنون[3].

النّهيُ عن تعجيل الانتقام مِنَ المكذّبين، والصبرُ على صنيعِ أعداء الدّين

فائدة حذف متعلّق الفعل ﴿فَٱصۡفَحِ﴾:

حُذِفَ مُتَعَلِّقُ الصَّفْحِ لِظُهورِهِ، أيْ عَمَّنْ كَذَّبَكَ وآذاكَ[4]، والنّكتة في الحذف هو الأمر بأن يكون الصّفح وصفًا لازمًا له ﷺ، فهو ﷺ مأمورٌ بالصَّفح عنهم وعن غيرهم، والمعنى ليكن منك الصَّفحُ الجميل.

الصّفحُ خلقٌ كريمٌ، ينبغي أن يكونَ وصفًا لازمًا للمؤمنين

فائدة مجيء المفعول المطلق في الآية:

قولُه تعالى: ﴿ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾، أفاد ذكر المفعول المطلق تأكيد الأمر بالصَّفحِ، ولمّا كان المفعول المطلق لبيانِ نوعِ الصَّفحِ دلَّ على أنَّ الصّفحَ أنواعٌ، وأنَّ منه الجميل والقبيح،، فلمّا وصفَ الصَّفحَ بالجميل أفادَ أنَّ المرادَ أفضلُه وأكملُه وأحسنُه فلا يكون فيه عتبٌ ولا تعرُّضٌ، ولا نقصٌ فيه ولا منَّةٌ في العرف، وفيه حلمٌ وإغضاءٌ، وفي وصف الصَّفحِ بالجميل إشعارٌ بألّا يكون الإعراضُ داعيًا إلى ترك

الصّفح الجميل، هو ما لا نقصَ فيه ولا منَّةَ في العرف

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/372، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/541.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صفح).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/77.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/77.

نصيحتِهم ودعائِهم إلى الحقِّ، بل الصَّفح الجميل طريق لِتليين قلوبهم إلى الحقِّ والإيمانِ باللّه وبرسولِه[1].

بلاغة الاستعارة، في قولِه ﴿ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾:

وُصِفَ الصَّفحُ بالجميل على طريق الاستعارة المكنيَّة، فكأنَّه شُبِّه الصَّفح بذاتٍ جميلةٍ تسرُّ النّاظرين بجامع اللَّذَّة الحاصلة عندَ النّظر إليه وقبولِه عندَ النّاظرين ثمَّ حُذفَ المشبَّه به وذُكر شيءٌ من لوازمِه، لإفادة المبالغة في الاتّصاف بأفضل أنواعِ الصَّفحِ وأكملِه بحيث إذا رآه أيُّ إنسانٍ يمدحه ولا يذمُّه.

الصَّفحُ الجميلُ خلقٌ إنسانيٌّ، فأيُّ إنسانٍ إذا رآه يمدحه ولا يذمُّه

بديع ردِّ العجز على الصّدر في الآية:

لمّا وقعَ في صدر السّورة الاسْتِدْلالُ عَلَى المُكَذِّبينَ بِالبَعْث بِخَلْق السَّماواتِ والأَرْضِ وما بينهما، عِنْدَ قَوْلِه: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ [الحجر: 14 - 16] وما بعدها من الآيات التي ذكرت خلقَ الأرضِ وإلقاء الرّواسي وإرسال الرّياح، وخُتِمَتْ بِآيَة: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ٢٣﴾ [الحجر: 23] إلَى قَوْلِه تَعالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ﴾ [الحجر: 25]، وانتقل هُنالَك إلَى التَّذْكير بِخَلْقِ آدَمَ عليه السلام وما فيه مِنَ العِبَر. ثُمَّ إلَى سَوْقِ قَصَص الأُمَم الَّتي عَقِبَتْ عُصورَ الخِلْقَة الأولَى، فلمّا كان الأمرُ كذلك آنَ الأوانُ لِلْعَوْدِ إلَى حَيْثُ افْتَرَقَ طَريقُ النَّظْم حَيْثُ ذَكَرَ خَلْقَ السَّماوات والأرض وما بينهما ودَلالَتَهُ عَلَى البَعْث بِقَوْلِه تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، فجاءَتْ عَلَى وِزانِ قَوْلِه تَعالَى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ [الحجر: 16] الآياتُ، فإنَّ ذَلِك خَلْقٌ بَديعٌ، وزيدَ هُنا أنَّ ذَلِك خُلِقَ بِالحَقِّ، وكانَ قَوْلُه تَعالَى: ﴿وَإِنَّ

ذكر الإجمال بعد التّفصيل لإثبات الإحياء والإماتة والحشرِ لله تعالى

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/461، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/217، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/77.

ﵟٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖﵞ فذَلَكَةٌ لِقَوْلِهِ تَعالَى: ﵟوَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُﵞ [الحجر: 23] إلى: ﵟوَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٢٥ﵞ [الحجر: 25]، أي بذكر الإجمال بعد التّفصيل لزيادة تمكين وتقريرِ معنى إثبات الإحياء والإماتة والحشرِ لله تعالى، فعادَ سياقُ الكَلام إلَى حَيْثُ فارَقَ مَهْيَعَهُ، ولِذَلِكَ تَخَلَّصَ إلَى ذِكْرِ القُرْآنِ بِقَوْلِهِ: ﵟوَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِيﵞ [الحجر: 87] النّاظِرُ إلَى قَوْلِهِ تعالَى: ﵟإِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ﵞ [الحجر: 9][1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/77.